الزيارة السلطانية لمدرسة الطب

توالت زيارات صاحب العظمة السلطان حسين كامل لمدارس العاصمة وتشجيعهُ لمن فيها من التلامذة والتلميذات بالخطب الحكيمة والهدايا النفيسة . ومن المدارس العليا التي زارها مدرسة قصر العيني الطبيَّة قصدها يوم الثلاثاء في التاسع من الشهر الماضي وشاهد اولاً مجموعات العقاقير والنباتات ثم زار الفرقة الثالثة حيث كان الدكتور فرغوسن يلقي درساً في الباثولوجيا ثم الفرقة الرابعة وكان الدكتور مادن يلقي دروسهُ في الجراحة فاهتم عظمتهُ بمشاهدة اجزاء الاجسام المريضة المحفوظة في الآنية الزجاجية . وبعد ما سمع قسماً من الدرس الذي كان يلقى على الطلبة استأذن حضرة المدرس في الكلام وخطب في الطلبة الخطبة الآتية

« انتم تتعلَّمون الآن في السنة الرابعة و بعد بضعة اشهر تخرجون من هذه المدرسة وتنالون الشهادة وتصيرون اطباء فيجب ان تتحلوا بالاخلاق الفاضلة لان صناعة الطب من اشرف الصناعات التي تقتضي رقيًّا في الاخلاق والآداب . ان صناعتكم تقضي عليكم بخدمة الانسانية وتخفيف آلام الانسان والاحتفاظ باسرار العائلات فاتصفوا بالاخلاق والآداب التي تؤهلكم لذلك واشتغلوا بدروسكم لتنبغوا في صناعتكم وتكونوا رجالاً واتركوا السياسة الى اهلها

« يجب ان تكونوا اطباء بالمعنى الصحيح فتواسوا اخوانكم في الانسانية وتخففوا اوجاعهم وآلامهم وتخلصوا لوطنكم وتخدموهُ بالعلم والعمل

« لقد كنت في سنة ١٨٧٧ وزيراً للجهادية وكانت الحرب العثمانية الروسية قد اشتعلت نارها على اثر الحرب المصرية الحبشية وكنا في حاجة شديدة الى الاطباء فاعلنَّا حاجتنا الى نحو ٨٥ طبيباً تخصر في الحال الدكتور محمد علي باشا الجراح الشهير مع عدة من توابع الاطباء الذين تخرجوا في هذه المدرسة وعرضوا خدمتهم علينا وتطوعوا للسفر الى الحرب خدمة للجرحى وتخفيفاً لآلامهم فايدوا بذلك وطنيتهم الصحيحة المبنية على حب القريب وخدمة الوطن في وقت الشدة والحاجة

« فاقتدوا بهؤلاء الافاضل وكونوا دائماً خير معوان لخدمة وطنكم ومساعدة الانسان في ضيقهِ وشقائهِ

« لقد حدث منذ مدة ان قل الاقبال على هذه المدرسة فلم يكن فيها الاَّ العدد اليسير من الطلبة ولكنها عادت فنمت وترعرعت واقبل الطلاب عليها حتى بلغ عددهم الآن نحو ٢٥٩

طالباً للطب و ٢٦ طالباً للصيدلة وذلك بهمة حضرة ناظرها الفاضل وزملائه الاساتذة الذين يعملون معاً على ترقية هذه المدرسة واعلاء شأنها . ثم شكر عظمتهُ الطلبة وقال انني وقفت نفسي على خدمة هذه البلاد وسأعمل كل ما استطيعهُ لاسعادها وأكون قدوتكم في كل ما يعود عليها بالخير والهناء »

فهتف الطلبة بالدعاء لعظمتهِ وصفقوا تصفيقاً شديداً

وزار عظمتهُ المعمل الكيماوي وكان قد اجتمع فيهِ طلبة الصيدلة للسنة الاولى والثانية والثالثة وأكبوا على العمل فكان قسم من طلبة السنة الاولى يحلل المعادن وآخر يحضر العناصر البسيطة وقسم من طلبة السنة الثانية يحضر بعض الادوية كالايثر والكلوروفورم وقنوات الاميل وقسم يحلل الخل لمعرفة نقاوتهِ ويبحث عن الحشيش في الادوية وآخر يشتغل بتشريح النباتات ويتفقد انواع النشاء بالمكرسكوب . وكانت الفرقة الثالثة تشتغل بتحضير الانابيب التي فيها السوائل المعدة للحقن وبتحليل البلي والنبيذ والاسمدة الكيماوية وكان الدكتور جبرائيل بك بحري مدرس الكيمياء يشتغل بفحص المواد الغذائية والعقاقير فشرح لعظمتهِ اكثر الاعمال الكيماوية المذكورة فابدى عظمتهُ اهتماماً عظيماً بها وسأل بعض الطلبة هل يتحولون الصيدلة عن ميل لهذا العلم وحضهم على الاجتهاد وقال ان البلاد في حاجة كبيرة الى الصيادلة . ثم شكر للدكتور جبرائيل بك بحري اهتمامهُ وعملهُ وطلب منهُ ان لا يكتفي بالتعليم بل يواصل التمرين و يفيد حقهُ حتى اذا برح الطلبة المدرسة بعد اتمام دروسهم وانفردوا في عملهم لا يعودون في حاجة الى استاذ يدربهم وتقوى فيهم ملكة التعويل على انفسهم

وزار بعد ذلك السنة الثانية الجديدة وكان يدرس فيها علم الهستولوجيا (علم انسجة الجسم) والسنة الثانية القديمة وكان يدرس فيها الفسيولوجيا العملية وكان حضرة الدكتور ولسن يشرح لعظمتهِ دروس الطلبة واعمالهم في هاتين السنتين

ثم زار غرفة التصوير الشمسي والغرفة التي تعرض فيها صور الامراض بالفانوس السحري فكان يسأل عن بعض الامراض وهل هي من الامراض الفاشية في القطر وهل يشفى المريض منها اذا تدورك بالعلاج

وقد تحول نظره على نوع خاص الى مرض البلهرسيا فكان كلما عرض شيء يختص بهذا المرض يكثر من البحث والاستعلام عنهُ فقيل لعظمتهِ ان ضباط الجيش الانكليزي يحثون في هذا المرض بحثاً خصوصياً توصلاً للوقوف على امور لا تزال مجهولة في شأنهِ وقد اعد لهم في هذه المدرسة معمل خاص بذلك فزارهُ وكان بعض الجنود الانكليز يشتغل فيهِ

فابدى سروره بما رآهُ من اجتهادهم في خدمة الانسان ومعالجة امراضه

ومر وهو خارج من الفرقة الرابعة برواق عرضت فيه المأكولات المختلفة الانواع وجعل لها مقاييس تدل على ما في هذه المأكولات من المواد الزلالية والمواد الكربونية والمواد النشائية وعلى بيان مقدار ما يكفي الانسان من الغذاء في اليوم من كل نوع من انواع المأكولات المذكورة فسر عظمتهُ بذلك وقال باسماً يحسن بطباخ قصري ان يحضر الى هنا ويطبق هذه المقاييس والبيانات على ما يطبخهُ من المأكولات حتى لا يأكل الانسان الاَّ على قدر حاجته ويأمن شر التخمة

وزار عظمتهُ المعرض الطبي الفضائي وقد عرضت فيه انواع الداطورة التي يدسها بعض الاهالي لغيرهم في القهوة بأمل ان يغيبوا عن صوابهم فيسرقوا ما معهم والزرنيخ المبثوث في العيش لسم الناس وفي الذرة لسم المواشي وانواع السم المختلفة التي يحتال الاشقياء على دسها في المأكولات والمشروبات لقتل اعدائهم او مواشيهم انتقاماً منهم . فدهش عظمة السلطان لما رآهُ في ذلك المعمل من ضروب التفنن في الشر وقال من الاسف ان يصرف اصحاب هذه المكايد ذكاءهم في الشر بدلاً من ان يصرفوهُ في الخير

وزار السنة الاولى القديمة والسنة الاولى الجديدة حيث تدرس الطبيعة وعلم البيولوجيا وكان يبدي للطلبة في جميع الفرق سروره من اجتهادهم ويخاطبهم بالفاظه العذبة تشجيعاً لهم على الدرس وخدمة الاوطان

وبعد ذلك توجه والدين معهُ جميعاً الى المكتبة حيث ذكر القائمون بامرها لعظمته ان عدد الذين طالعوا في كتبها هذا العام بلغ نحو ثمانية آلاف نفس وعدد الكتب التي استعارها المطالعون منها نحو ٥٠٠٠ كتاب وكانت جدران هذه القاعة مزينة بثلاث صور مختلفة الازياء للمرحوم كلوت بك مؤسس هذه المدرسة . وقدم الدكتور كيتنج اساتذة المدرسة لعظمته فسلم عليهم جميعاً مصافحة

ثم تقدم الدكتور كيتنج ناظر المدرسة والقى بين يدي عظمته خطبة بالفرنسوية قال فيها انهُ بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانه اساتذة المدرسة يبدي لعظمته شكرهُ على زيارته للمدرسة ويعد هذه الزيارة من اكبر التشجعات التي تشجعهم على مواصلة الاجتهاد والعمل في سبيل ترقية هذه المدرسة واعلاء شأنها

ثم قدم اليهِ جبرائيل بك بحري اقدم الاساتذة الوطنيين فيها فالقى بين يدي عظمته الخطبة العربية الآتية

مولاي

غير خاف على عظمتكم اني لست خطيباً ولكن بصفتي اقدم الوطنيين في هذه المدرسة اسمحوا لعبدكم ان يفوه ولو بكلمة

اعتقدوا يا مولاي ان كل فرد منا شاعر باعباء المسؤولية الملقاة على عاتقه فوظيفتنا تنحصر في التدريس ولكن اي تدريس تدريس راقٍ . تدريس فئة من الشبيبة هم اليوم طلبة وسيصبحون غداً اطباء وصيادلة يلتقون الانسانية المتألمة بين ذراعيهم فان لم نف التعليم حقهُ من العناية لتوجع الانسانية وبتوجعها نكون قصرنا امام وجداننا وامام الله وجنينا على الانسانية جناية لا تغتفر . ولا از يد يا مولاي شرحاً في هذا الموضوع . وقد تفضلتم في هذا اليوم السعيد بزيارة هذا المعهد العلمي الجليل الذي شيدهُ ساكن الجنان جد العائلة المحمدية العلوية والذي يرأسهُ اليوم هذا الاداري الهمام جناب الدكتور كيتينج الذي بمعاونة هؤلاء الاساتذة الافاضل بذل قصارى جهده لجعله في مصاف المعاهد الاوربية الكبرى . فحضوركم اليوم انما هو لهذا الغرض النبيل وهو تشجيعنا على الكثرة في سيرنا اطال الله بقاءكم لكي تجنوا ثمار الانيات المصري الصالح الذي ستغرسهُ يدكم البيضاء المباركة

فاجابهما صاحب العظمة السلطان بخطبة باللغة الفرنسوية ذكر فيها سرورهُ مما شاهدهُ من تقدم المدرسة وحسن نظامها وارتقائها وقال انهُ يجهر صراحة على رؤوس الاشهاد ان المدرسة تقدمت تقدماً عظيماً وانها يجب ان لا ينظر اليها كما ينظر الى بقية المدارس بل يجب ان ينظر اليها نظرة خاصة وان تساعد مساعدة خاصة حتى تخرج من الطلبة النابغين ما يكفي لسد حاجة البلاد . ولا ريب ان حضرة عدلي باشا يكن وزير المعارف الرجل النير الحاضر معنا يقدر ذلك ويسعى الى تحقيقه

ان عدد الطلبة الذين يتلقون الطب هنا نحو ٣٠٠ طالب وهو عدد قليل جداً لا يفي بحاجة سكان القطر الذين يبلغ عددهم الآن نحو ١٢ مليوناً فمديرية الغربية التي يبلغ عدد اهلها نحو مليون ونصف لا يجد المريض فيها الا مستشفى واحداً وكذلك مديرية اسيوط التي يبلغ عدد اهلها نحو مليون نفس . نعم ان في بعض المراكز مستشفيات صغيرة لبعض المرضى ولكن اين هذا مما تحتاج اليهِ البلاد حقيقة من هذا القبيل . ولا تنال البلاد قسطها من المستشفيات وغيرها من البيوت الصحية الا بزيادة الطلبة الذين يتخرجون من مدرسة الطب وابلاغهم العدد الكافي لسد حاجة الامة

ارجو ان لا تقتصروا في تعليم الطلبة على العلم فقط بل التوا عليهم دروس الاخلاق اذ

من الزم الامور للطبيب ان يكون متخلقاً بالاخلاق الفاضلة ومحلّى بالآداب العالية فصناعتهُ تقضي عليهِ ان يدخل المنازل ويعالج الرجال والنساء ويكون ملاك رحمة للمرضى ومؤتمناً لاسرارهم . وهذه كلها امور توجب عليكم ان ترقوا اخلاق الطلبة وترفعوا آدابهم ليكون لهم من ذلك اعظم مساعد على القيام بواجباتهم من ان تشوب عملهم شائبة

ثم اثنى على ناظر المدرسة وسائر الاساتذة اجمل ثناء وتمنى للمدرسة دوام التقدم والنجاح بحسن اجتهادهم وجميل سعيهم

ونزل عظمتهُ الى حديقة المدرسة وكان الطلبة جميعاً قد تركوا غرفهم ووقفوا صفوفاً صفوفاً في رواق البناء المقابل للبناء الذي خرج عظمتهُ منهُ فهتفوا لهُ ثلاثاً فليحي مولانا السلطان وصفقوا تصفيقاً شديداً لقيام عظمتهُ شاكراً ثم ودع الحاضرين مصافحة فشيع بمثل ما قوبل بهِ من الحفاوة والاجلال

وقدمت الى عظمتهِ اثناء تشريفهِ قصائد مختلفة عبّر بها الطلبة عمّا يشعرون من الحب والاحترام لعظمتهِ فاخترنا منها القصيدة التالية لحضرة محمود افندي صدقي عبد العزيز

جاريتَ في اسعاد مصر النيلا ... واعدت فينا عهد اسماعيلا
لله كم لك من اياد جمة ... قد مثّلت ايامهُ تمثيلا
زرت المدارس زورة الغيث الذي ... يهمي فيحيي ناضراً ومحيلا
وبثثت فيها نخوة لا ترتقي ... الاّ سبيل المهتدين سبيلا
واليوم زرت الطب ترفع شأنهُ ... وتزيد ثغراً قد حواهُ اثيلا
لله ممكنة اقلتَ عثارها ... فغدا بمجدك عرشها مأمولا
ادركت دوحة بيتها العالي الذرى ... من بعد ان كادت تميل ذبولا
لا طامعاً في ما يزيدك عزةً ... انت العزيز منالهُ واصولا
بل رغبة في حب مصر وذو الهوى ... يرضى العناء من النعيم بديلا
عش يا ابن مصلح مصر فينا آمراً ... متفقداً احوالها مأمولا
يا ابن الالى ملكوا يباهر فضلهم ... بين الضلوع عواطفاً وميولا
هل عهدك اليمون الاّ عهدهم ... ان نحن قسنا بالجميل جميلا
هذي مآثرهم وانت سليلهم ... فأضف الى غرر الجدود حجولا
هذا الرئيس وهذه اعوانهُ ... قاموا بامرك بكرةً واصيلا
نشروا علينا من ظلالك وارفاً ... انعم بهِ للطالبين مقيلا